

فلسفة التولي والتبري في أدبيات زيارة الإمام الحسين (ع)

الشيخ لبنان حسين الزين

الكلمات المفتاحية: زيارة الإمام الحسين، التولي، التبري، الحق، زيارة وارث، الولاية، الإمامة.

تنطوي الزيارة، بوصفها نمطاً قولياً وممارسة عملية على أدبيات تربوية يتغيها الدين الإسلامي. ويظهر ذلك من خلال ما تحمله من دلالات معنوية عالية وسامية في بيان نصح الحق ومواجهته للباطل في كل زمان ومكان، وما تمد به الزائر من قوة ودافعية لمواصلة هذا النهج.

ولعل التشجيع الوارد في النصوص الحديثية على زيارة قبور الأئمة (ع) والأولياء الصالحين وشدة الرحال إليهم: "لكل إمام عهد في عنق أوليائه..، وإن من تمام الوفاء بالعهد وحسن الأداء زيارة قبورهم، فمن زارهم رغبة في زيارتهم وتصديقاً بما رغبوا فيه؛ كان أئمتهم شفعاءهم يوم القيامة"¹؛ إنما مرده إلى تشرب الخط العملي للعقيدة الإسلامية وتمثله؛ كما جسده هذه النماذج الصالحة، والافتداء بسيرتهم العطرة التي قدمت الإسلام في أبهى صورته ومظاهره، والتزمت بأصوله وقيمه وتشريعاته أتم التزم وأكمل؛ فأضحت منارات قدوائية تتجاوز أطر الزمان والمكان، لتلهم المسترشدين والسالكين في طريق الحق.

ففي أدبيات الزيارة نجد استحضاراً مباشراً للمزورين، ولسيرتهم الإيمانية القويمة التي تستحق الثناء؛ لأنها نالت الاصطفاء الإلهي؛ بإخلاصها ورفعها لواء التوحيد، وهداية الناس إلى معالم الصراط المستقيم، والأخذ بيدهم في سلوكه، والتضحية والاستشهاد على هذا النهج. ليعبر الزائر بذلك عن وفائه لهم، عبر مشاعر السلام والحب التي يُعلنها تجاههم، ويعقد العزم على مواصلة نصحهم، والسير على هدايتهم، وللحوق بهم:

السلام عليك يا وارث آدم صفوة الله! السلام عليك يا وارث نوح نبي الله! السلام عليك يا وارث إبراهيم خليل الله!

السلام عليك يا وارث موسى كلیم الله! السلام عليك يا وارث عيسى روح الله! السلام عليك يا وارث محمد حبيب

الله! السلام عليك يا وارث أمير المؤمنين (ع) ولي الله! السلام عليك يا ابن محمد المصطفى! السلام عليك يا ابن علي

¹ الكليني، محمد بن يعقوب: الكافي، ط3، طهران، دار الكتب الإسلامية؛ مطبعة حيدري، تصحيح وتعليق: علي أكبر الغفاري،

المرتضى! السلام عليك يا ابن فاطمة الزهراء! السلام عليك يا ابن خديجة الكبرى! السلام عليك يا ثار الله وابن ثاره والوتر الموتور! أشهد أنك قد أقيمت الصلاة، وآتيت الزكاة، وأمرت بالمعروف، ونهيت عن المنكر، وأطعت الله ورسوله حتى أتاك اليقين [...] أشهد أنك كنت نورًا في الأصلاب الشاخنة، والأرحام المطهرة، لم تنجسك الجاهلية بأنجاسها، ولم تلبسك من مدلهمات ثيابها، وأشهد أنك من دعائم الدين وأركان المؤمنين، وأشهد أنك الإمام البر التقي الرضي الزكي الهادي المهدي، وأشهد أنّ الأئمة من ولدك كلمة التقوى وأعلام الهدى والعروة الوثقى والحجة على أهل الدنيا، وأشهد الله وملائكته وأنبياءه ورسله أنّي بكم مؤمن وبإيابكم موقن بشرائع ديني وخواتيم عملي، وقلبي لقلبي سلم، وأمري لأمركم متبع صلوات الله عليكم وعلى أرواحكم وعلى أجسادكم وعلى أجسامكم وعلى شاهدكم وعلى غائبكم وعلى ظاهركم وعلى باطنكم².

وعليه، تغدو الزيارة خطابًا داعمًا تربويًا وترشيدياً، تسهم في تحقيق الاتصال بين الزائرين وبين الأئمة (ع)؛ بما يحملون من تجربة تامة وكاملة للدين، ليستلهموا منهم النهج، ويأخذوا منهم المدد، ويواصلوا طريقهم في خوض اللج؛ في إحقاق الحق وإبطال الباطل.

إنّ المتأمل في مضامين زيارات الإمام الحسين (ع)، يجد حضوراً فاعلاً لخطاب التويّي والتبرّي؛ ودورهما في ترشيد مسيرة الإنسان نحو الحق؛ بتقديم الولاء لمن ساروا قبله وجسّدوا أروع صور العبوديّة والطاعة لله تعالى، وإعلان البراءة ممّن انحرفوا عن الحقّ وجسّدوا أشنع صور التمردّ والعصيان للحقّ تعالى:

يا أبا عبد الله! إنّّي أتقرّب إلى الله وإلى رسوله وإلى أمير المؤمنين وإلى فاطمة وإلى الحسن وإليك بموالاتك، وبالبراءة ممّن أسّس أساس ذلك، وبنى عليه بنيانه وجرى في ظلمه وجوره عليكم وعلى أشياعكم، برئت إلى الله وإليكم منهم، وأتقرّب إلى الله ثمّ إليكم بموالاتكم وموالاته وإليكم، وبالبراءة من أعدائكم والناصبين لكم الحرب، وبالبراءة من أشياعهم وأتباعهم. إنّّي سلم لمن سالمكم، وحرب لمن حاربكم، وولي لمن والاكم، وعدوّ لمن عاداكم.

ومن هنا، نجد أنّ خطاب التويّي والتبرّي الوارد في نصوص زيارات الإمام الحسين (ع)، يحمل بعداً خاصاً يتمحور حول الولاء والبراء في ما يتعلّق بالإمامة والولاية والحكم بعد رسول الله (ص)، وما جرى على المسلمين من انحراف عن خطّ الإسلام المحمّديّ الأصيل؛ بفعل تويّي مجموعة من الناس حكم المسلمين وتحكّمهم برقابهم وثرواتهم؛ وهم غير مأمونين على الإسلام والمسلمين، مدفوعين بأحققاد الجاهليّة وشهوة الإمرة والتسلّط، فعاثوا في الأرض فساداً،

² الطوسي، محمد بن الحسن: مصباح المتهدّد، ط1، بيروت، مؤسّسة فقه الشيعة، 1411هـ.ق/ 1991م، ص720-721.

وسعوا فيها ليهلكوا الحرث والنسل: { وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُجِبُّ
الْفَسَادَ }³، مهتدين بذلك مسيرة الاستحلاف: { إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً }⁴؛ ومعارضين سنة التكوين: { وَلَقَدْ
كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ }⁵؛ حتى بلغوا مبلغاً من المعارضة سَوَّغَ لهم شيطانهم
فيها قتل سبط الرسول الأكرم (ص) الإمام الحسين (ع)، فانقلبت عليهم سنة التكوين: { يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ
بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ }⁶، " { يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ
الْكَافِرُونَ }⁷"، وجسدت تضحيات السبط الولي ثورة الحق المدوية على الباطل على امتداد الزمان والمكان: { بَلْ
تَقْدِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ }⁸.

ولذلك، تُقدّم الزيارة نفسها نمطاً خطائياً تثويرياً ينطوي في حقيقته على التوَلَّى والتبرّي، فلا بدّ للزائر من تحمّل
الشهادة بالحقّ والولاء لأهله واتّخاذ الموقف من الباطل والبراءة من أهله. وهذا ما جرى التركيز عليه في أدبيات زيارات
الإمام الحسين (ع)، حيث يعمد الزائر إلى إعلان الموقف والاصطفاف مع طائفة بدل أخرى، بشكل صريح وقاطع
من خلال حضوره أمام الشخصية المزورة وما تمثله من نهج الحقّ والشهادة لهم بالمقام الرفيع والفضيلة والجاهدة
والتضحية والاستشهاد في سبيل إعلاء لواء التوحيد، في قبال أعدائه وما يمثّلونه من نهج الباطل، وما ينبغي اتّخاذه من
موقف حاسم وقاطع يتمثّل في لعنهم لعنا مباشراً على اختلاف مستويات انحرافهم ووقوفهم بوجه الحقّ الذي مثله
الأئمّة (ع)؛ وهو ما أشارت إليه زيارة وارث، حيث قسّمتهم إلى ثلاث طوائف: "فَلَعَنَ اللَّهُ أُمَّةً قَتَلَتْكَ، وَلَعَنَ اللَّهُ أُمَّةً
ظَلَمَتْكَ، وَلَعَنَ اللَّهُ أُمَّةً سَمِعَتْ بِدَلِّكَ فَرَضِيَتْ بِهِ"⁹:

³ سورة البقرة، الآية 205.

⁴ سورة البقرة، الآية 30.

⁵ سورة الأنبياء، الآية 105.

⁶ سورة التوبة، الآية 32.

⁷ سورة الصف، الآية 8.

⁸ سورة الأنبياء، الآية 18.

⁹ الطوسي، مصباح المتهجّد، مصدر سابق، الصفحة 721.

- الطائفة الأولى:

وهي التي باشرت قتال الإمام الحسين (ع)، بالمشاركة في المعركة ضده، وتجهيز العتاد والعدّة عليه، وقتله وأصحابه وأهل بيته الأطهار: "لعن الله أمة أسرحت وأجمت وتهيأت وتنقبت لقتالك يا مولاي يا أبا عبد الله" ¹⁰.

- الطائفة الثانية:

وهي التي ظلمت الإمام الحسين (ع)، ومكّنت منه، وشايعت وبايعت وتابعت وظهرت عليه، وخالفته. وأصحاب هذه الطائفة وإن لم يشاركوا فعلياً ومباشرة في قتل الإمام الحسين (ع)؛ كما هو حال أصحاب الطائفة الأولى، ولكنهم رضوا بما جرى، وقبلوا بالظلم والقتل الذي لحق بهذه العترة الطاهرة من أهل بيت النبي (ص)، وأعانوا الطغاة على استحلال حرمه: "فَلَعَنَ اللَّهُ أُمَّةً أَسَّسَتْ أَسَاسَ الظُّلْمِ والجُورِ عَلَيْكُمْ أَهْلَ البَيْتِ، وَلَعَنَ اللَّهُ أُمَّةً دَفَعَتْكُمْ عَن مَقَامِكُمْ، وَأَزَالَتْكُمْ عَن مَرَاتِكُمْ الَّتِي رَتَّبَكُمْ اللَّهُ فِيهَا... وَلَعَنَ اللَّهُ المِمَّهِّدِينَ لَكُمْ بِالتَّمَكِينِ مِنْ قِتَالِكُمْ، بَرِئْتُ إِلَى اللَّهِ وَالْيَكُومِ مِنْهُمْ وَمِنْ أَشْيَاعِهِمْ وَأَتْبَاعِهِمْ" ¹¹.

- الطائفة الثالثة:

وهي التي سمعت بذلك؛ فرضيت به. وأصحاب هذه الطائفة لم يشاركوا في قتل الإمام الحسين (ع) مباشرة؛ كما أصحاب الطائفة الأولى، ولم يبايعوا الطغاة ويرضوا بفعاليتهم من قتل الإمام الحسين (ع)؛ كما أصحاب الطائفة الثانية، ولكن أصحاب هذه الطائفة سمعوا استنصار الإمام الحسين (ع) ولم ينصروه، وآثروا العافية على الوقوف بجانبه في عاشوراء بأرض كربلاء.

ولعلّ فلسفة التبرّي من هذه الطائفة تكمن في أنّ هذا الخذلان والسكوت والقعود عن نصرّة الإمام الحسين (ع) الذي مثّل الدين كلّّه في معركته مع الطاغوت كلّّه، ينطوي على الرضا بفعل الطغاة أو الرضا بالظلم.

¹⁰ المصدر نفسه، الصفحة 774.

¹¹ المصدر نفسه.

ومن هنا، تروم الزيارة استنهاض الهمم، وتنبية الغافلين في كلذ زمان ومكان إلى خطورة مسلك السكوت والخذلان عن نصره الحقّ في مواجهة الباطل؛ كي يوطّئوا أنفسهم لأنّ يكونوا دائماً في جبهة الحقّ المتمثلة بنهج الإمامة والولاية، حتى لا تسنّ سنة القتل واستحلال الحرم الطاهرة في كلّ وقت وحين. فالمسؤوليّة خطيرة، والتاريخ يشهد، والسكوت عن الظلم مشاركة له، والحياد أو الانسحاب أو الصمت والتجاهل لا يعفي صاحبه؛ بقدر ما يجعله مداناً ومعنياً ومشمولاً باللعن والبراءة منه؛ لأنّه يكون بمثابة المتخلّف عن استنصار الإمام الحسين (ع)، والمتجاهل لدعوته، والمعرض عنها في كلّ زمان ومكان: "من لحق بي منكم استشهد معي، ومن تخلّف لم يبلغ الفتح"¹².

¹² الصقّار، محمد بن الحسن: بصائر الدرجات، تصحيح وتعليق وتقديم: حسن كوجه باغي، طهران، منشورات الأعلمي؛ مطبعة